مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

البعثة العلمية بالمغرب مطلع القرن العشرين
بحث علمي أم حملة دعائية؟

د. محمد الكرادي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّص

لطالما ركزت الدراسات التاريخية على الأهمية السياسية التي لعبتها البعثة العلمية الفرنسية المؤسسة بمدينة طنجة منذ سنة ١٩٠٤م كمؤسسة علمية تسعى إلى اكتشاف الوسط المغربي والكشف عن خصوصياته الاجتماعية والثقافية، ابتغاء تحقيق احتلال مرتقب بأقل تكلفة ممكنة. لكن واقع المراسلات التي دارت بين مسؤولي البعثة ودهاقنة الاستعمار الفرنسي أبانت عن فجوة كبيرة بين طرفين، إذ لم يعر السياسيون والعسكريون الفرنسيون اهتمامًا كبيرًا لما كتبه واستقاه السوسيولوجيون والانثروبولوجيون من أرض الميدان أثناء التخطيط لعملية غزو المغرب. إذا كانت المجهودات الاستعلامية الفرنسية التي حققتها بالمغرب منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كافية لإقناع الرأي العام الميتروبولي بأن ثمار البلاد المغربية قد أينعت وحان وقت قطافها وإن فرنسا لصاحبتها، فإن مجهودات أولئك الرحالة والمستكشفين ظلت ناقصة لكونها انطلقت من قاعدة استدلال تقوم على قياس نظرة أصحابها وآرائهم الذاتية المسبقة عن أحوال المغرب، فتم البحث عن آليات عمل جديدة تكون قادرة على بلورة نظرة أكثر وضوحًا عن واقع البلاد بالاعتماد على البحث العلمي الدقيق، لما يشكله ذلك من تيسير لعملية اختراق المغرب واحتلاله لاحقًا. لذلك تحاول هذه الدراسة الإجابة عن سؤال ما الجدوى من تأسيس البعثة العلمية بالمغرب قبيل الاحتلال؟ وسنحاول الإجابة على ذلك من خلال تسليط الضوء على السياق التاريخي الذي ساهم في إنشاء هذه المؤسسة، لفهم الأهداف الحقيقية التي كانت وراء وجودها بالمغرب مطلع القرن العشرين.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٣١ أكتوبر ٢٠٢٠
تاريخ قبول النشر: ١٨ نوفمبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

البعثة العلمية؛ التغلغل الاستعماري؛ صورة المغرب؛ الاستشراق؛ السوسيولوجيا؛ الأنثروبولوجيا.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2020.205912

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد الكرادي. "البعثة العلمية بالمغرب مطلع القرن العشرين: بحث علمي أم حملة دعائية؟".- دورية كان التاريخية.- السنة الثالثة عشرة- العدد الخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٠. ص ١٧٠ – ١٧٧.

Corresponding author: mohamedelgraddi@gmail.com
Official website: http://www.kanhistorique.org
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Inquiries: info@kanhistorique.org

Open Access This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشرت هذه الدراسة في دَوريةُ كَان التَّاريْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

إذا كانت المجهودات الاستعلامية الفرنسية التي حققتها بالمغرب منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كافية لإقناع الرأي العام الميتروبولي بأن ثمار البلاد المغربية قد أينعت وحان وقت قطافها وإن فرنسا لصاحبتها، فإن مجهودات أولئك الرحالة والمستكشفين ظلت ناقصة لكونها انطلقت من قاعدة استدلال تقوم على قياس نظرة أصحابها وآرائهم الذاتية المسبقة عن أحوال المغرب، فتم البحث عن آليات عمل جديدة تكون قادرة على بلورة نظرة أكثر وضوحًا عن واقع البلاد بالاعتماد على البحث العلمي الدقيق، لما يشكله ذلك من تيسير لعملية اختراق المغرب واحتلاله لاحقًا[1].

في هذا الإطار تم إرسال "إدموند دوتي" إلى المغرب سنة ١٩٠٠م في مهمة رسمية بهدف البحث عن الوسيلة الفضلى للتغلغل الفرنسي في المغرب، وجاءت النتيجة في شكل تقرير مفصل تحت عنوان (Des moyens de développer l'influence française au Maroc) مما جاء فيه: "...يجب أن تتبع الحملة العلمية في المغرب بدون انقطاع، كما يجب أن تُدعم البعثات العلمية والدراسات المغربية بكل الطرق...، وتنشر من خلال الكتب والجرائد بطريقة تحبب وتغري برؤية هذا البلد الجميل"[2]، وأوصى في نفس التقرير بإتباع عدة وسائل منها ما هو رسمي ديبلوماسي ومنها ما هو علمي -في ظاهره على الأقل- عن طريق تنظيم رحلات استكشافية وبعثات علمية، وإصدار منشورات دعائية ومقالات صحفية، وإقامة محاضرات لجلب الفرنسيين للاستقرار بالمغرب[3]، مؤكدًا على ضرورة التكامل بينهذه الوسائل قائلاً: "وسائل تغلغلنا ذات أهمية متساوية، ولا يجب إقصاء إحداها، فباجتماعها فقط يمكن الوصول إلى هدفنا، (لذا) يجب استعمالها بكثافة وبشكل تركيبي وبطريقة تدريجية".[4]

أصبح وجود مؤسسة علمية تسعى إلى تعبيد طريق الاحتلال مسألة ملحة، مع التركيز على الدراسات السوسيولوجية، باعتبارها الأداة المفضلة والمؤهلة لمقاربة الوسط المغربي من الناحية العلمية، وبالتالي الانتقال من مرحلة المسح الجغرافي الذي تكلفت به الرحلات الميدانية إلى مرحلة الدراسة الوظيفية لبنيات المجتمع المغربي، وعن ذلك يقول دانييل ريفي: "مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي حدث انعطاف، إن لم نقل تحول، فالجرد استبدل بالكشف، والباحث حل محل الكشاف، واستبدلت الرحلة الخطية التي اتبعت خطًا دقيقًا على طول محاور العبور المفروضة من طرف المخزن وبعض الوسطاء... بالتحري والسبر وتمشيط النطاقات الجهوية التي يختارها الباحثون"[5]. فبرزت إلى السطح مؤسسة "مغربية" تعنى بهذا البحث أطلق عليها اسم البعثة العلمية. لكن التوظيف العلمي لم يخل من إيحاءات وصور عملت على شرنقة المغرب داخل إطار ظل صامدًا فيه لقرون. فما هي ظروف تأسيس البعثة العلمية؟ وما هي أهدافها بالمغرب؟ وأي صورة حملتها إنتاجاتها عن المغرب؟

أولاً: السياق التاريخي لظهور البعثة العلمية

١/١-إحداث لجنة المغرب

إذا كانت الحركة الإمبريالية الفرنسية قد نمت وترعرعت في سياق تاريخي جد حساس تميز بالتنافس مع باقي القوى الرأسمالية الكبرى بغية إثبات الوجود السياسي وتحقيق المكاسب الاقتصادية، فإن الأمر لم يخل من مشاكل تنظيمية جمة عكست الروح الاستعجالية لساسة فرنسا، وعن ذلك يقول "شايلي بيرت"(Chailley-Bert): "بنيت إمبراطوريتنا بشكل ارتجالي وعلى غير استعداد، إذ لم نكن نتوفر على مخطط أو منهج واضح، وأخذنا يومًا بعد يوم ما كان بإمكاننا أخذه، واستهوتنا في ذلك السهولة أكثر من الفائدة التي يمكن أن نجنيها من التوسع، واليوم ندرك ما ينقصنا"[6].

تُفسِر هذه القولة من جهة الارتباك الذي لازم السياسة التوسعية الفرنسية إلى عهد قريب من نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، ومن جهة ثانية انقسام الطبقة السياسية الفرنسية بين مؤيد ومعارض لتلك السياسة التي بدأت تتسم بعدم الجدوى، أو على الأقل بغياب التصور الشمولي مقارنة مع باقي القوى الإمبريالية الأخرى، وهو تصور لم يجد "شايلي بيرت" حرجًا في الإعلان عنه قائلاً: "فرنسا تجهل مستعمراتها أكثر من أي بلد آخر"[7].

وهو محق في ذلك خلال تلك الفترة على الأقل، إذ كانت إنجلترا مثلا تتوفر على مجموعة من المستندات حول مستعمراتها مثل سجل المكتب الاستعماري (Colonial office List) الذي ضم معلومات قيمة وأرقاما قديمة وأخرى حديثة عن كل مستعمرة على حدة، بالإضافة إلى الحوليات التي حوت بين دفتيها عددا لا يحصى من المعلومات المفيدة نشرتها مختلف المستعمرات ووزعها مسؤولون حكوميون، بالإضافة إلى الإحصائيات الاستعمارية التي نشرت في سلسلتين مختلفتين وتناولت مواضيع تهم الحكوميين والعلماء والتجار[8]. هذا في الوقت الذي لم تول فيه فرنسا، خلال بداية مشروعها

التوسعي، نفس الأهمية للجانب المعرفي حول المستعمرات، وهو ما نستشفه من قول "شايلي بيرت" دائمًا: "من الأمور المثيرة، أن فرنسا لم تحرص أبدا على معرفة مستعمراتها، فبعد سبعين سنة من غزو الجزائر ما تزال فرنسا تبحث عما يمكن للأرض أن تنتجه وما تحويه من ثروات، وفضلا عن ذلك فقد كانت كل الاكتشافات تقريبا من إنجاز الخواص، ولم تساهم الإدارة سوى بالنزر اليسير"[٩].

لتعويض هذا النقص الحاد في المعطيات الدقيقة حول المستعمرات الفرنسية أو المناطق المزمع استعمارها إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، تم تأسيس لجنة إفريقيا في خريف ١٨٩٠م من قبل بعض الأشخاص بدافع من الغيرة الوطنية -حسب "برونشفيك"-[١٠] لتسليط الضوء على هذه المناطق، والعمل على جردها، وتفكيك طلاسم مجتمعاتها. وقد حددت تلك اللجنة هدفها في "العمل وبكل الوسائل المتاحة لديها على تنمية النفوذ والتجارة الفرنسيين في إفريقيا الغربية والوسطى والشمالية"[١١].

تمكنت لجنة إفريقيا خلال الفترة المتراوحة بين ١٨٩١م، و١٩٠٦م من توجيه وتمويل ما يقرب من ثلاثين بعثة علمية خاصة بإفريقيا[١٢]، حظي المغرب ضمنها بمكانة خاصة منذ مطلع القرن العشرين، فقامت بتأسيس عدد من اللجن الفرعية كان آخرها لجنة المغرب سنة ١٩٠٤م[١٣]، وتحددت مهمتها في جانبين أساسيين هما: الإخبار والدعاية، بهدف غزو الرأي العام الفرنسي وإقناعه بأهمية "القضية المغربية لمستقبل فرنسا، وعليها أن تصبح قضية وطنية"[١٤].

ولإقناع الرأي العام الفرنسي بأهمية القضية المغربية حرصت لجنة المغرب على إرسال مجموعة من البعثات الدراسية والكشفية من أهمها البعثة الهيدروغرافية، تم بعثات سيكونزاك. وقد تزامنت هذه البعثات مع الصراع الفكري الذي دار بين قطبين من أقطاب البحث العلمي الفرنسي، والمتمثل من جهة في الجمعيات الجغرافية الفرنسية ولجنة إفريقيا، والأجهزة العلمية الموجودة بالجزائر، والتي ضمت في صفوفها أكبر جماعة من العلماء المعترف بهم من الذين كانوا على إطلاع واسع بشؤون شمال إفريقيا بما في ذلك الانثروبولوجيين واللسانيين المتخصصين في القضايا الإسلامية العامة[١٥]، ومن جهة أخرى "أوغسطس برنار" و"أوغيستموليراس" و"وليام مارسي" وآخرون ممن قاموا بعدد من البعثات الناجحة إلى المغرب[١٦]. لكن الحسم النهائي في هذا الصراع كان لصالح "ألفريد لوشاتولي" مؤسس البعثة العلمية ومدبر سقوط مدرسة الجزائر، على حد تعبير "إيدموند بورك"[١٧].

١/٢-تأسيس البعثة العلمية للمغرب

أسفرت كل التطورات السابقة عن ميلاد البعثة العلمية بالمغرب بداية القرن العشرين الميلادي بقرار صادر عن الحاكم العام للجزائر "سلستان جونار" (Célestin Jonnart)، وتألف مكتب إدارتها من عدة شخصيات سياسية وعلمية فرنسية مرموقة كانت تحت المراقبة المباشرة لوزارة الشؤون الخارجية بموجب قرار "جونار" الصادر بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٠٣م[١٨].

تبعت هذه البعثة من الناحية الإدارية لكرسي السوسيولوجياوالسوسيوغرافيا بـ"كوليج دوفرانس" تحت إشراف "ألفريد لوشاتولي"، والذي اختار من جهته جورج سالمون (G. Salmon) ليكون مسؤولا على هذه البعثة باقتراح من "گاستوناسبيرو"(Gaston Maspéro)، رغم المعارضة الشديدة التي واجهها من طرف المدرسة الجزائرية، حيث اتُّهم سالمون بعدم الكفاءة العلمية باعتبار أن تخصصه في علم الآثار لا يؤهله للإلمام بكامل منطقة إفريقيا الشمالية، هذا فضلا عن جهله باللغة المحلية لسكان المنطقة[١٩]. غير أن محدودية الوسائل المادية الكفيلة بإنشاء مكتبة للدراسات في عين المكان، وتوفير الأدوات والمواد اللازمة للعمل، كانت من أكبر المشاكل التي واجهتها البعثة "المغربية" المستحدثة، فتم تخصيص ميزانية قدرها ١١,٠٠٠ فرنك، تكلف بتأمينها عدد من المؤسسات، جاءت على الشكل التالي:

- مساهمة الحكومة الجزائرية ٨٠٠٠ فرنك.
- مساهمة وزارة الخارجية ٢٠٠٠ فرنك.
- مساهمة وزارة التعليم العمومي ١٠٠٠ فرنك.
- المجموع ١١٠٠٠ فرنك[٢٠].

إلى جانب هذه الميزانية استفاد الفرع الجديد بالمغرب من مساعدات عينية استجابة للدعوة التي وجهها "أوجين إيتيان" إلى كل المهتمين والمعنيين بالأمر للمساهمة في جمع التبرعات والهبات اللازمة، وهي الدعوة التي لُبيت على نطاق واسع، مما أدى إلى تطوير سريع للمكتبة في ظرف زمني وجيز[٢١].

ساهمت في تلك التبرعات أوساط متعددة، منها شخصيات سياسية مثل: رئيس الجمهورية الفرنسية والأمير "دارنبيرغ" وبعض أعضاء مجلس النواب، وأخرى تنتمي إلى الميدان الجغرافي وخاصةً الجمعيات مثل: الجمعية الجغرافية الباريسية، والجمعية الجغرافية الوهرانية، وجمعية مارسيليا، وبعض الشركات من بينها الشركة المغربية. كانت هذه التبرعات إما

على شكل اكتتاب مالي أو على شكل تبرعات بالكتب والمجلات والدوريات، وقد بلغ عدد الكتب التي توصلت بها البعثة العلمية في نهاية ١٩٠٤م ما يزيد عن ١,٤٩٦ كتابًا تدور مواضيعها حول التاريخ والجغرافيا واللسانيات، سواء تعلق الأمر بالمغرب أو بمنطقة إفريقيا الشمالية ككل[٢٢].

غير أن تلك الهبات لم تف بالغرض بعدما وصلت مصاريف البعثة سنة ١٩٠٤م وحدها إلى ١٧,٠٠٠ فرنك، أي بزيادة ٦,٠٠٠ فرنك عن موارد البعثة، توزعت على الشكل التالي:

- مصاريف إنشاء المقر ٦,٠٠٠ فرنك.
- تعويضات عن السكن وصيانة المكتبة وتكوين سكرتير أهلي ٢,٠٠٠ فرنك.
- مصاريف السفر في المغرب ٤,٠٠٠ فرنك.
- منشورات البعثة (١٢٠٠ صفحة) ١,٠٠٠ فرنك.
- مصاريف النشر ٣,٥٠٠ فرنك.
- مطبوعات أخرى ٥٠٠ فرنك[٢٣].

دفع هذا الخصاص "لوشاتوليي" إلى مراسلة وزارة الخارجية لرفع مساهمتها كاتِبا: "في اعتقادي سيكون من المرغوب فيه أن ترفع وزارة الخارجية مساهمتها المقدرة بـ ٢٠٠٠ فرنك إلى نفس مقدار مساهمة الحكومة الجزائرية بـ ٨٠٠٠ فرنكا لضمان مسار عادي للبعثة في المستقبل، ونظرًا للظروف الخاصة للمغرب يفضل تبعية المؤسسة لقسم (الشؤون الخارجية)"[٢٤].

ثانيًا: أهداف البعثة العلمية

حُددت وظيفة البعثة العلمية منذ بدايتها في دراسة المجتمع المغربي بمختلف مؤسساته الدينية والاقتصادية والاجتماعية، إلى جانب دراسة قضايا أخرى ذات طابع علمي مثل التاريخ والأركيولوجيا واللسانيات إلخ...، وذلك لتحقيق معرفة معمقة بالوسط المغربي قادرة على التخفيف من حدة توتر العلاقات بين فرنسا والمغرب، لتصبح بذلك القاعدة الأساسية لسياسة مغربية سليمة. مع التركيز على الدراسات السوسيولوجية على حساب الدراسات الأركيولوجية واللغوية والتاريخية، التي اعتبرت آنذاك دراسات تكميلية فقط للنمط الأول، إذ حدد "ميشو بلير" مهمة البعثة العلمية في عصرين اثنين:

- البحث عن الوثائق التي تسمح بمعرفة ودراسة المغرب في الميدان.
- العمل على إعادة تنظيم هذه الوثائق ومنحها الحياة، ليس فقط عبر الاعتماد على الكتب والمخطوطات، ولكن عبر المعلومات والروايات الشفوية والتقاليد الأسرية والقبلية[٢٥].

شكلت البعثة العلمية في المغرب انعكاسا لتجربة استعمارية طويلة خاضتها فرنسا بكل من إفريقيا الشمالية والغربية والهند الصينية، حيث تم الاقتناع بأن الأداة الكفيلة لبلوغ تلك المعرفة هي السوسيولوجيا، وهذا ما نستشفه من "أوجين إيتيان" الذي صرح قائلا: "لقد قادنا التجريب الاستعماري إلى لزوم تطبيق المذاهب التي قام بصياغتها تلاميذ أوجسْت كُونْت، أولئك الذين كانت السوسيولوجيا بالنظر إلى السياسة في أعينهم على غرار ما كانت عليه البيولوجيا بالنسبة للطب، فلنعرف كيف نستلهم الفكر الوضعي بالمغرب إذا ما كنا نطمح إلى تحقيق إنجاز علمي في هذا البلد، ولنبدأ من حيث انتهينا في جهات أخرى بمعاينة كل ما كان عليه المجتمع المغربي في تطوره القديم والحديث، وذلك حتى نتمكن من قيادته بثقة تامة في النفس...نحو تطوره في مستقبل الأيام، مستقبل التقدم السلمي في ظل رعاية فرنسا الديموقراطية"[٢٦].

يعطينا هذا التصريح فكرة واضحة عن أهداف وتوجهات البعثة العلمية بالمغرب قبيل الحماية، والتي جعلت من نفسها خادما للآلة الاستعمارية الفرنسية أكثر من أي شيء آخر، مع تلافي تكرار التجربة الدموية بالجزائر وإنجاز التغلغل والسيطرة بأقل الخسائر البشرية الممكنة[٢٧]. وهو ما عبر عنه "أوجين إيتيان" بشكل صريح قائلاً: "إن البحث العلمي ضرورة من الطراز الأول (لإتمام) العمل الذي شرعنا فيه بالمغرب، وإذا أردنا أن نطبق بإخلاص سياسة مصالحة وتهدئة تجاه القبائل المغربية، فلا يمكننا أن نستغني عن دراسة تقاليدها وأعرافها ونظمها الاجتماعية بأكثر ما يمكن من الدقة، تفاديا للأخطاء الاجتماعية في المغرب وما يمكن أن ينتج عن ذلك من عواقب"[٢٨].

حاولت البعثة العلمية أن تزاوج بين إرادة المعرفة وإرادة الغزو والاختراق، مع إرضاء الرأي العام الغربي عموما والفرنسي على وجه الخصوص، وإقناعه بمشروعية تدخله العسكري في المغرب، وربطه بمسألة التحضير، فهناك رسالة إنسانية ينبغي أن يقوم بها الأوربي المتحضر تجاه المجتمعات غير الغربية "البربرية"، بإخراجها من حالتها تلك. وهي المهمة التي أوكلت للدراسات الأنتروبولوجية من خلال دراساتها المتعددة للزوايا الطرقية، ولأهل الجبل "الأبرياء" مقابل أهل السهل الغزاة وللمرأة والعائلة و...إلخ. وإذا كانت بعض الدراسات قد أشارت

إلى الدور الكبير للبعثة العلمية في خدمة قضية التغلغل السلمي، عبر تسخير أبحاثها ومعارفها لتسهيل الاحتلال[٢٩]، فواقع الأمر يظهر أنها لم تكن سوى أسلوب دعائي موجه بالأساس لغزو الرأي العام الفرنسي وإقناعه بمشروعية التدخل بالمغرب قبل كل شيء.

فرغم المجهودات التي بذلها أعضاء البعثة، وما أنجزوه من دراسات، وما جمعوه من رصيد وثائقي مهم، لم تكن هذه الحصيلة أداة من أدوات التسرب السلمي بالمغرب كما كان مأمولاً أثناء التأسيس، إذ بقيت القرارات السياسية والعسكرية بيد الدبلوماسيين والإداريين والعسكريين، وظلت البعثة أداة دعائية لا تشذ عن باقي الوسائل الأخرى، ذلك أنها لم تُستشر في الشؤون المغربية إلا نادرا، واتخذت الحكومة الفرنسية قراراتها الخاصة في تغييب تام للبعثة العلمية وأعضائها، باستثناء بعض المراسلات التي جمعت بين "لوشاتوليي" ووزير الشؤون الخارجية أواخر مارس سنة ١٩١١م[٣٠] موازاة مع اضطرابات مدينة فاس، ولم تعر الحكومة أي اهتمام للإنتاج "العلمي" الذي كانت تنجزه البعثة، ولا للرصيد الوثائقي الذي جمع بخصوص عدد من القضايا التي اعترضت سبيلها بالمغرب، فعندما طُرحت قضية توات المغربية أمام البرلمان الفرنسي، انقسمت آراء السياسيين، وذهبت في ذلك مذهبين مختلفين ومتعارضين، حيث أكد البعض على ارتباط توات تاريخيا بالمغرب، بينما اعتبرها البعض الآخر منطقة مستقلة تماما، وهو الموقف الذي تبنته الحكومة الفرنسية. لكن بعد الاحتلال أوضح لوشاتوليي في إحدى رسائله لوزير الخارجية الفرنسي -سنة ١٩١١م- أن الحكومة صارت تتوفر على مجموعة من الوثائق المكونة من: اللائحة الكاملة لولاة المخزن على تلك المنطقة، والمراسلات المتبادلة بين الطرفين، واللائحة الكاملة للضرائب التي كان أهل توات يدفعونها للمخزن، أي كل العناصر التي تؤكد تبعية المنطقة طيلة القرون الثلاثة الأخيرة إلى إحدى عمالات المغرب، لكن تلك الوثائق منعت من النشر بقرار إداري[٣١].

وقد أثار تجاهل المعلومات الميدانية المستقاة من طرف أعضاء البعثة العلمية وعدم تكليفهم بأي مهمة رسمية قبل التدخل الفرنسي المباشر في المغرب استياء "ألفريد لوشاتوليي" الذي وجه رسالة شديدة اللهجة لوزير الخارجية الفرنسي سنة ١٩١١م، يتهم فيها الحكومة الفرنسية بالاستعجال وضيق الأفق، جاء فيها: "لم يسبق للسياسة الفرنسية أن وضعت نصب أعينها العبارة لتالية: «شيء ما يقف أمامنا، ولا نعرف ما هو، وسنقوم بدراسته، وقد يتطلب هذا الأمر ستة أشهر، أو سنة أو سنتان، لا يهم. فمن الأفضل أن نضحي ببعض الوقت والعمل عوض إراقة الدماء، وتبذير الأموال»"[٣٢]

هكذا لم توظف الحكومة الفرنسية مجهودات البعثة العلمية في سبيل تسطير سياسة استعمارية خاصة بالمغرب، ولم تكن أبحاثها أداة من أدوات "التسرب السلمي" كما كان مأمولا أثناء التأسيس، حيث أبعد أعضاؤها عن دائرة القرار السياسي الذي بقي حكرًا على رجال السياسة لا العلم، الذين اكتفوا بنشر أعمالهم في عدد من الدوريات أشهرها: "الوثائق المغربية" (Archives marocaines) و"مجلة العالم الإسلامي" (Revue du monde musulman)، وغيرها من المنشورات التي تجاوزت البحث عن التاريخ السياسي للمغرب إلى التنقيب عن الخلفيات الثقافية والاجتماعية للساكنة المحلية على اختلاف أصولها، مكونة صورة توافق إلى حد بعيد أهواء الحزب الاستعماري الفرنسي وما كان رجاله يروجون له داخل مجالس الجمعية العامة.

ثالثًا: صورة المغرب من خلال الأبحاث العلمية الكولونيالية

منذ استحداث البعثة العلمية بطنجة تم إصدار العديد من الأبحاث ذات الطابع العلمي ظاهريا على الأقل، في محاولة لدراسة مختلف بنيات المجتمع المغربي في إطار مقاربة جديدة تدمج مختلف فروع العلوم الإنسانية، مع التركيز على طبيعة الشخصية المغربية، وأسس تربيتها ونسقها القيمي والتقليدي، في محاولة للإحاطة بسيكولوجية الإنسان المحلي. احتفت هذه الأبحاث بمقولات الاستشراق التقليدي وأنتروبولوجيا الفكر الغرائبي الذي تحكمه "الأورو- مركزية" كمنطق وتفكير، إذ تم تقديم عقلية الإنسان المغربي بوصفها عقلية ميالة إلى الإفراط في التدين، وقاصرة على القيام بالاستدلال التدريجي والتأمل النظري الخالص، بالإضافة إلى كونها عقلية تنفر من محاولات التركيب والتحليل[٣٣]، إلى غير ذلك من القيم المعيارية التي وصفت بها هذه العقلية. بموازاة ذلك حاولت الأبحاث النظرية والميدانية أن تصور المغرب كمملكة للمفارقات والتناقضات المتعايشة بشكل غريب على عدة مستويات أهمها:

١/٣-المستوى الاجتماعي

تم تصوير الاقتصاد المغربي كنظام فقير مبني على العلاقات الخارجية والتنظيم الذاتي للقبائل، مقابل علاقات اجتماعية مبنية على البذخ والإسراف، سواء في الصراعات والخصومات والجنائز، أو من خلال الأفراح والهدايا، رغم الفقر، حيث تحضر

العزة والفخر والرضي عن العيش في ظل اقتصاد الكفاف الذي بنى عليه الفرنسيون إحدى الفرضيات المهمة لفهم الكيفيات والآليات الثقافية التي يدبر بها المغاربة نمط عيشهم[٣٤].

جعلت الأنتروبولوجيا الكولونيالية من الاختلال الحاصل بين الاقتصاد والمجتمع أحد خصائص المجتمعات البدائية، وهو ما أكده "إيدموند دوتي" خلال جولته المغربية، معتبرا الساكنة المحلية ما هي إلا نموذج للمجتمعات البدائية التي تستطيع وحدها أن توازن بين آليات تدبير اقتصاد الكفاف وبذخ العلاقات الاجتماعية[٣٥]. فتم تصوير المجتمع المغربي على أنه لا يزال يعيش في الحالة التي كان عليها في تلك الأزمان السابقة لتوافد العرب أيام "يوغرطة" و"تاكفاريناس"[٣٦]. بل درج بعض علماء الإيثنولوجيا على اعتبار المجتمع المغربي بأنه لا يزال في مراحل التشكيل الأولى[٣٧]. وبقدر ما يتوغل المرء في البوادي والأرياف فهو يجد مختلف مظاهر ذلك "المجتمع البدائي" وصوره، ويصادف أنماطا من الاعتقادات وأشكالا من العادات والتقاليد، وأنواعا من البراءة والطيبوبة على نحو ما يصفه روسو في حديثه عن الإنسان الأول في حالته الطبيعية[٣٨].

٣/٢-المستوى السياسي

حظي المخزن بحيز مهم من أبحاث البعثة العلمية، حيث كتب "إدموند دوتي" بحثا مطولا عن السلطة المغربية، ونشط "ميشو بلير" في البحث عن موضوعات الزوايا الدينية وضريبة النائبة وبعض مكونات الحكومة المخزنية"[٣٩]. بينما ركزت أبحاث "أوگيستبيرنار" و"جورج سالومون" وغيرهما على ضعف السلطة المغربية رغم شراستها، فإذا كانت تفرض طاعتها في المدن والسهول، فإنها لم تتمكن مطلقا من غزو الجبال والمناطق الهامشية التي تُكون ثلثي البلاد[٤٠].

حولت هذه الدراسات السلطة المغربية إلى بناء هندسي ربما كان الهرم أقرب الأشكال إليه، قمته هي السلطان وقاعدته القبائل العربية باشتمالها الضمني على الجيش السلطاني. وتتألف الروابط بين القمة والقاعدة من وزراء وقواد من جانب أول، ومن الأعيان والعلماء ورجال الزوايا -في أحوال مصالحتها مع السلطان- من جانب ثاني، وبالتالي فهو تجاور واجتماع بين سلطتين، إحداهما دينية وأخرى "لائكية"، بينما يمسك السلطان بأعنتهما معا[٤١].

لم يكن المخزن داخل هذه الأبحاث الكولونيالية يعني السلطة والأمن، بقدر ما كان يمثل آلية للتغلغل الاستعماري بحكم ضعف سلطته، حيث كتب "ميشو بيلير" قائلاً: "المغرب الرسمي والمغرب الدبلوماسي هو ذلك الذي نتعامل معه ونقرضه المال، وهو الذي نرغمه على دفع التعويضات، وفي كلمة واحدة إنه مغرب الجزيرة الخضراء"[٤٢].

أما عند تناول القبيلة ورغم تعدد الدراسات التي عالجت هذا الموضوع فإن السوسيولوجياالكولونيالية لم تهتم بالعالم القروي بقدر ما اهتمت بمفهوم القبيلة، فتم تصوير المغرب كمجال لسيادة نوعين من القبائل: النوع الأول هو القبائل البربرية، والنوع الثاني هو القبائل العربية، وهذه القسمة لا تعود إلى أصل عرقي، بل الفاعل في القسمة هو اعتبار وجود هذا النوع أو ذاك من الأعراف والتقاليد والعادات، وسلوك هذه الممارسة أو تلك. هكذا فإن اسم البربري ينطبق بشكل خاص على السكان الذين حافظوا على عادات وتقاليد وأنماط تعود إلى سلوكاتسابقة على الإسلام، في حين تم تخصيص نعت العربي لتلك الفرق التي تمت أسلمتها على نحو أفضل[٤٣].

ظلت القبيلة جسمًا فارغًا عديم الروح فاقدا للدلالة، فهي هيكل تتصدع فيه الهوية المغربية، لم يتم تناولها كمفهوم تاريخي قابل للتطور، وإنما تم التعامل معها كمفهوم أنتروبولوجي نزع منها كل الأبعاد التاريخية. بالمقابل وسم سكان المدن بتدني الأخلاق والانحطاط حيث يقول "إدموند دوتي": "...السمة الغالبة في طباع المغاربة، وحديثنا الآن عن سكان المدن وسهول الغرب، هو حبهم الشديد للبذخ والإسراف، فاحترامهم بالتالي لملكية الغير ضئيل، وهم يميلون إلى إخفاء الحقيقة، ويسعون إلى التملص من عهودهم ومواثيقهم متى كان ذلك يجلب لهم نفعا شخصيا"[٤٤]. ولذلك كان النفاق والتذبذب في الالتزام بأوامر الدين وقواعده دينهم الحقيقي، ومن ثَمَّ كانوا يحتالون في أوامر الدين بحيث يأخذونه على النحو الذي يرضي سعيهم إلى الثراء ومراكمة الأموال والممتلكات[٤٥]، فأصبح بذلك تناقض الشعب المغربي شعار الكتاب الاستعماريين، تمتع داخله البربري بفكر ديمقراطي وأخلاق عالية، فهو لا يكره الأجنبي، ولا يعارض التقدم، عكس الإنسان العربي الذي نعتوه بالكسل والخمول والخداع[٤٦].

إننا في هذه الحالة أمام نظرة أوربية متمركزة حول ذاتها، تطلعنا بشكل كبير على الافتراضات المسبقة لصاحبها، أكثر مما تطلعنا على الحقيقة المدروسة، وبالطبع فنظريات من هذا القبيل لا تقدم سوى تصورات شبه علمية للمجتمعات المعنية، ومن تم ضرورة القيام ببحث علمي، خاصة إذا ما سلمنا بما أورده نور الدين الزاهي في دراسته المهمة بعنوان "مدخل لعلم الاجتماع" حيث قال: "لم يكن الرحالة المستكشفون علماء سوسيولوجيا أو أنتروبولوجيا، مثلما لم تكن لهم خبرة أكاديمية

بالمناهج الكمية والكفيلة المؤهلة لتحصيل المعلومة بشكل دقيق"[٤٧]، مستدلا بمثال على "أوكيستموليراس" "الذي قدر ساكنة المغرب نهاية القرن ١٩م بما يناهز ٧٠ مليون نسمة، أما كميات الثروات المعدنية بشمال المغرب فلا تعد ولا تحصى من ذهب ونحاس وحديد... إلى جانب وجود ساكنة بسيطة في تفكيرها وبدائية في نمط عيشها"[٤٨].

وإذا كنا نعلم اليوم بما لا يدع مجالا للشك أن ما توصل له موليراس من جرد للخصائص الطبيعية والبشرية بالمغرب قُبيل الحماية هو محض خيال لا وجود له من أساس في الواقع، فإن ما كتبه عن عقلية وسلوكات المغاربة لا يخرج عن نفس الخيال، فالباحثون من خلال توظيفهم منهجا متسرعا وشاذا من الناحية العلمية –حسب "جيرمان عياش"- بنوا نظريات مدهشة على قاعدة غير مأمونة الجوانب، تلك النظريات التي تدعي بأنها قادرة على تسليط الأضواء بكلمتين أو ثلاث كلمات على قرون أو آلاف السنين من التاريخ[٤٩].

فاختزل تاريخ المغرب في مجموعة من المفارقات تقوم على منطق ثنائي من قبيل:

- عرب/ بربر على المستوى العرقي.
- سهل/ جبل على المستوى الإيكو – طبيعي.
- بلاد المخزن/ بلاد السيبة على المستوى السياسي.
- الشرع/ العرف على المستوى القانوني.

خَاتِمَةٌ

شكلت هذه الأعمال مرحلة انتقالية بين الاستشراق والإثنوغرافيا، فهي تجمع بين الكتابة من وجهة نظر المستشرق الذي يتعامل بحس تاريخي مع النصوص والمؤسسات الكبرى مثل الشرفاء والأضرحة...، ووجهة نظر الإثنوغرافي الذي يستند إلى دراسات ميدانية. فكانت المحصلة صورة غير جديدة تمامًا من حيث المضمون عن سابقاتها، لكنها كذلك من حيث طريقة التناول، جعلت العديد من الأوساط الفرنسية تتقبلها في حلتها العلمية المرتكزة على البحث السوسيولوجي الذي وضع الإنسان والمجتمع المغربي أمام مرآة السيكولوجيا الكولونيالية. إنها نتاج طبيعي لتواطؤ المعرفة مع السياسة، يصبح فيه البحث العلمي خادمًا للاستعمار، فينحرف عن خطوط الاستواء الموضوعية، ويفقد تلقائيا طابعه التوثيقي، ليتحول بذلك إلى مجرد أداة للدعاية وتبرير السيطرة والتدخل، بعدما أصبحت القضية المغربية القاسم المشترك بين الأوساط الاقتصادية والسياسية والعلمية.

الاحالات المرجعية:

(١) المازوني محمد (تقديم)،دوتي إدموند، **مراكش، قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة سنتي ١٩٠١/١٩٠٢**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، مطبعة أنفو-برانت، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، فاس، ص٣-٤.

(2) Doutté Edmond, **Des moyens de développer l'influence française au Maroc. Première partie: Analyse des moyens généraux d'influence**, rapport fait à la demande du gouverneur général de l'Algérie, F. Levé, Paris, 1900, p 20.

(3) Ibid, pp 24-25

(4) Ibid, p 118.

(5) Rivet Daniel,"Exotisme et «pénétration scientifique»: l'effort de découverte du Maroc par les français au début du XXe siècle", in **Connaissance du Maghreb sciences sociales et colonisation**, Editions C.N.R.S, Paris, 1984, pp 95-96.

(6) Chailley-Bert Joseph,**Dix années de politique coloniale**, Edition librairie Armand colin, Paris, 1902, pp 28-29.

(7) Ibid, p14.

(8) Ibid, p15.

(9) Ibid, pp 141-142.

(10) Brunschwig Henri, **Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français 1871-1914**, Armand Colin, Paris, 1960, p 116.

(11) Ibid, p 117.

(12) Ibid, p 121.

(13) Robert-AgeronCharles, **France coloniale ou parti colonial**, édition Erreur, presses universitaires de France, Paris, 1978, p 139.

(14) Ibid, p 148.

(15) BurkeIII Edmund, "La mission scientifique au Maroc: science sociale et politique dans l'âge de l'impérialisme", in **B.E.S.M**, n° double 138-139, 1979, p 41.

(16) Ibidem.

(17) Ibid, p 43.

(١٨) حسن كمال، "مؤسسات البحث والتعليم بالمغرب خلال فترة الحماية الفرنسية، مقاربة تاريخية"، **رسالة الدكتوراه في التاريخ**، إشراف محمد كنبيب، جامعة محمد الخامس، السنة الجامعية ٢٠٠١-٢٠٠٢، ص ٨٤

(19) Burke III Edmund, op-cit, p 48.

(20) BoutbouqaltTayeb, La politique d'information du protectorat français au Maroc (**1912-1956**), Les éditions Maghrébines, Casablanca, 1996, 1erédition, p 103.

(٢١) حسن كمال، مرجع سبق ذكره، ص ٧٩.

(٢٢) نفس المرجع، ص ٨٠.

(23) Boutbouqalt Tayeb,op-cit, p١٠٤.

(24) Ibidem.

(٢٥) الزاهي نورالدين، **المدخل لعلم الاجتماع المغربي**، دفاتر وجهة نظر، العدد ٢٠، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص ١٥.

(٢٦) أورده: العلوي سعيد بنسعيد، "صورة المغرب في الاستشراق الفرنسي المعاصر"، ضمن **المغرب في الدراسات الاستشراقية**، أعمال الندوة السادسة التي انعقدت في مراكش يومي ٥ و٦ أبريل ١٩٩٣، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ص ٤٤.

(٢٧) الزاهي نور الدين، مرجع سبق ذكره، ص٩.

(28) Etienne Eugene, **Projet de résolution ayant pour objet de créer un institut marocain**, Edition Motteroz, Paris, 1904, p2.

(٢٩) العلوي سعيد بن سعيد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.

(30) Messal Raymond, **La Genèse de notre victoire marocaine : un précurseur : Alfred Le Chatelier (1855-1929)**, Edition Dunod, Paris, 1931, p 259.

(٣١) أورده: حسن كمال، مرجع سبق ذكره، ص ٩٤.

(٣٢) نفسه.

(33) Hardy Georges,"L'âme marocaine d'après la littérature française", in B.E.P.M, n°74, avril 1926, éditeur Emile Larous,Paris, pp 54-55.

(٣٤) الزاهي نور الدين، مرجع سبق ذكره، ص ١٣.

(٣٥) نفس المرجع، ص٤٣.

(36) E-Michaux-Bellaire, "Sociologie marocaine", in **Archives Marocaines**, Vol XXVII, Librairie ancienne Honoré Champion, Paris, 1927, pp 297-299.

(37) Ibid, p 423.

(٣٨) العلوي سعيد بنسعيد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧.

(٣٩) نفس المرجع، ص ٥٠.

(40) J-P. Langlois, "Introduction", in **Revue générale des sciences pures et appliquées**, n° 7, 25e année, 15 Avril 1914, tome XXV, Edition Armand Colin, Paris, 1914, p 291.

(٤١) العلوي سعيد بنسعيد، مرجع سبق ذكره، ص ٥١.

(٤٢) نفس المرجع، ص ٥٠.

(٤٣) العلوي سعيد بنسعيد، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧.

(٤٤) نفسه.

(٤٥) نفسه.

(٤٦) بوزوية سمير، **مكر الصورة: المغرب في الكتابات الفرنسية: (١٨٣٢-١٩١٢)**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء،2007، ص ٢٢٥.

(٤٧) الزاهي نور الدين، مرجع سبق ذكره، ص١٠-١١.

(٤٨) نفس المرجع، ص ١١.

(٤٩) عياش جرمان، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ١٩٨٦، ص٦-٧.